النص الأدبي عند الجليلة بنت مرة الشيباني

دراسة وصفية تحليلية

د. زينب السيد فكي*

المقدمة

بسم الله الواحد الأحد بسم الله الفرد الصمد بسم الله الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأصحابه الغر الميامين، وتابعيهم ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد.....

فقد تميز العصر الجاهلي بحب الأدب والأدباء وإعلاء شأنهم، لأنهم لسان القبيلة المنافح عنها، وسِجِلّها المخلد لكل مفاخرها وانتصاراتها، وبرغم من أن معظم الأدباء من الرجال إلا أننا نجد بعض النساء ولجن عالم الأدب وركبن هذا المركب الوعر فأجدن وتميزن. من هؤلاء الأديبات الشاعرة جليلة بنت مرة، التى رثت زوجها كليبا رثاء فاجعا، لم تسر فيه على نهج رثاء النساء لأزوجهن بل رثت به نفسها، وكافة قبيلتها كأنها تعلم أن موت زوجها بداية الدمار وشرارة النار التى ستأتي على كل ما حولها ومن حولها، فبكت وأبكت.

وقد قسمت هذه الورقة إلى مدخل يحتوى على نبذة عن جليلة بنت مرة، ومبحثين الأول بعنوان النص النثري عند جليلة بنت مرة والثاني بعنوان النص الشعري للجليلة بنت مرة، وتأتى أهمية هذه الدراسة من أنها تتناول شاعرة تكاد تكون مجهولة، وتلقى الضوء على المجتمع الجاهلي بكافة تناقضاته، كما تتحدث عن جزء أصيل من الرثاء كغرض شعري برعت فيه النساء في مختلف العصور ابتداء من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث.

أهداف البحث:

أولاً: مد البحث العلمي بسفر من أسفار العصر الجاهلي ولا يخفى عليكم أن دراسة النصوص الجاهلية تمُدُّ البحث والباحث بذخيرة لغوية، ثَرَّة. ثانيا: الوقوف على حياة شاعرة جاهلية ذات لغة رفيعة وعبارات بليغة وسلاسة وعذوبة. ثالثا: التحدث عن أصدق الأغراض الشعرية ألا وهو غرض الرثاء.

* أستاذ مساعد مجمع اللغة العربية بالخرطوم.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة هذا البحث في صعوبة تحليل النصوص الأدبية عامة و مفرداته الجزلة القوية خاصة وبيان ما يكتنفها من غموض فالمفردة الواحدة في المعاجم اللغوية لها عدد لا يستهان به من المعاني ولا يمكننا تحديد المعنى ألا بدراسة النص الأدبي وتخير أقرب المعاني للسياق الذي وردت فيه المفردة موضع الدراسة، وهذا العمل يتطلب اطلاعاً على المعاجم إضافة للذائقة الأدبية لدى الباحث. وانسب المناهج لهذا البحث هو المنهج التحليلي الوصفي الاستقرائي الذي يتمثل في جمع النصوص من مصادرها وتحليلها تحليلاً دقيقاً، ومن ثم تفصيل ما فيها من صور بلاغية وأساليب نحوية وجماليات موسيقية وألفاظ سهلة ممتنعة والنفاذ من خلال هذه النصوص إلى القيم المجتمعية وطرق التفكير والحياة، مستصحبين في ذلك الأمثال والأشعار المجانسة للنصوص المختارة.

الدراسات السابقة:

رغم كثرة الكتب التي تناولت النص الجاهلي والشعراء إلا أن شاعرتنا لم تجد حظا كافيا من الدراسة والتحليل وعندما أقول الدراسة أقصد الدارسة الكاملة الوافية لهذه الأديبة التي لا يشق لها غبار، ولا أقصد ورود أسمها أو أبيات متفرقة من قصيدتها في معرض الحديث عن حرب البسوس، فالجليلة لم تفرد لها بحوث خاصة بل جاءت مجملة مع كافة الشاعرات في العصر الجاهلي.

أسباب اختيار الموضوع:

من أهم أسباب اختيار هذا البحث أفتتاني الشخصي بالنصوص الجاهلية منذ أن تتلمذت على يد العلامة بابكر البدوي دشين في بداية حياتي العلمية، وأيضا قناعتي أن غرض الرثاء من الأغراض الصادقة لانتفاء المنفعة الذاتية ومن ذلك ما ينسب للحُطيئة عندما سئل: (مَن أشعر الناس؟ فأخرج لساناً رقيقاً، كأنه لِسان حَيّة وقال: هذا إذا طَمِع. ومن ذات الباب عندما قيل لكُثيِّر عَزّة: (لمَ تركتَ الشعر؟ قال: ذهب الشَّباب فما أَعجب، وماتت عَزّة فما أطرب، ومات ابن أبي ليلى فما أرغب. يريد عبد العزيز بن مروان)[1] وقالوا :أشعر الناس النابغة إذاَ رهب، وزُهير إذا غضب، وجَرير إذا رَغب[2]. وهذا ما قاله الخُريمي (عندما سئل ما بال مدائحك

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص442. والإمالي لأبي علي القالي، ج2، ص2041

2/ نفسه.

لمحمد من مَنصور بن زياد أحسنُ من مَراثيك؟ قال: كُنا حينئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نَعمل على الوفاء)[1]، وبينهما بَوْن بعيد.والدليل على صحة هذا المعنى وصِدْق هذا القياس، أنّ كُثيرَ عزّة والكُميت بن زيد كانا شِيعيّين غاليين في التشيع، وكانت مدائحهما في بني أمية أشرفَ وأجود منها في بني هاشم، وما لذلك علّة إلا قوة أسباب الطمع. ولا يخفى على عاقل ما بين الحالتين من فرق، فالراثي لا يستطيع أن يزيف مشاعره وينتفي عنده هدف الكسب والتملق.

مستخلص

أن تتبع النصوص الأدبية وتسليط الأضواء عليها من أبجديات البحث اللغوي، وهذه الدراسات تهدف إلى أغراض عدة وهي: أولا: تكوين صورة حية للمجتمع والبيئة وما يعتريهما من تغيرات تشكل النسيج الاجتماعي وتصبح بمثابة القانون الذي لا يخترق. ثانيا: بيان مواطن القوة والجزالة والعذوبة في النص المختار، لبيان الجيد من النصوص الأدبية حتى يقتفى الأدباء هذا النهج ويعتمدوه في مقبل نصوصهم.

عمدت الباحثة إلى دراسة النص الأدبي عند الجليلة رغم قلة ما وصلنا من نصوصها، وقسمت البحث إلى مقدمة حوت أهمية البحث والدراسات السابقة وأسباب اختيار الموضوع، ومدخل أول تناولت فيه ترجمة مقتضبة للشاعرة، ثم مبحث أول بعنوان النص النثري للجلية بنت مرة، وفيه نصين، ثم مبحث ثاني يحوى تحليل النص الشعري الوحيد للشاعرة، وخصصت المبحث الأخير لبيان العلاقة بين الموسيقى والأوزان والغرض الشعري ومدى ملائمة بحر بعينه لغرض بعينه، ثم ختمت بخاتمة وخمسة نتائج، ثم وضعت قائمة بالمصادر والمراجع التي استقت منها ماد البحث.

ترجوا الباحثة أن تكون قد وفقت في اختيارها للموضوع وطريقة عرضه سائلة المولى عز وجل التوفيق والسداد.

مدخل أول: نبذة عن الأدبية جليلة بنت مرة

الجليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان من بني شيبان بن بكر بن وائل من أوائل الشاعرات العربيات ومن أجمل نساء بكر وهي أخت جساس بن مرة، تزوجت الجليلة من ابن عمها وائل بن ربيعة الملقب بكليب، رغما عن خالتها(البسوس) التى أرادت تزويجها من التبع اليماني، لم تقل جليلة الشعر قبل مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس، فقد قتل كليب ناقة البسوس فقتله جساس، وبذلك أشعل حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً، لم تتزوج جليلة بعد

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص442. والإمالي لأبي علي القالي، ج2، ص2041

كليب وعاشت بقية عمرها تصطلى بنيران الحرب هي وقبيلتها، توفيت الجليلة سنة 84 ق هـ. 538م[1]

أبناء الجليلة من كليب:

لم أجد كتاب ترجم لأبناء الجلية ولكن كافة كتب التراجم ذكرت أن لها بنت واحدة لم يوثق لها ولم يقفوا عندها كثير بل ذكرت عرضاً حتى أنهم اختلفوا في اسمها فسميت مرة بديلة وسميت مرة اليمامة، وتفرد السوريين بذكر وجود ابن للجليلة كان جنين في أحشائها فوضعته عند أهلها ولم تخبره بنسبه ورباه خاله جساس وزوجه بابنته، حتى عرف الحقيقة فقتل خاله جساس ثار لوالده كليب والتحق ببني أبيه.

المبحث الأول

النص النثري عند جليلة بنت مرة

النص النثري الأول:

كان من الجليلة أنه لما قَتَلَ أخوها جَسَّاسٌ زوجَها كليبًا (اجتمع نساءُ الحى للمأتمِ، وقلن لأخت كليب: أَخْرِجِي جليلةَ أختَ جساسٍ عنا فإن قيامها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا، فذهبت إليها أخت كليب وقالت لها: اخْرُجي عن مأتمنا فأنت أخت قاتلنا وشقيقة وَاتِرِنا فخرجت تجر أعطافها، فلقيها أبوها مُرَّةُ فقال لها: ما وراءكِ يا جليلةُ ؟ فقالت: ثُكْلُ العَدَد، وحُزْنُ الأبد؛ وفَقْدُ حليل، وقتلُ أخٍ عن قليل؛ وبَيْنَ هذين غَرْسُ الأحقاد، وتفتت الأكباد، (على رؤوس الأشهاد)[2]. فقال لها: أَوَ يَكُفُّ ذلك كرمُ الصفحِ، وإغلاءُ الديات؟ فقالت: أُمْنِيَّةُ مخدوع وربِّ الكعبة ! أبِالبُدْن تَدَعُ لك وائلٌ دم ربِّها ؟!)[3]

(ثُكْلُ العَدَد، وحُزْنُ الأبد؛ وفَقْدُ حليل، وقتلُ أخٍ عن قليل؛ وبَيْنَ هذين غَرْسُ الأحقاد، وتفتت الأكباد)

لقد أجابت الجليلة بنت مرة أباها جواباً شافياً سريعاً موجزاً واصفة ما كان وما سيكون تعالوا نحلل قولها ثكل العدد وحزن الأبد، والثكل فقد الأحبة بالموت[4]، ومما يجب الإشارة إليه

1/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملاين/ ص 318.

/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص2042

/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج7، ص521. 3

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

هنا أن الثكل يعنى فقد الأحبة عامة وفقد البنين خاصة، إما إضافة الثكل إلى العدد فكناية عن تفشى القتل حتى يعجزنا إحصاء الثكلى والمفقودين فقداً أبدياً، كما أن مفردة العدد دون تحديد لهذا العدد دلالة على الكثرة المفرطة، ولم تكتفى بذلك بل عطفة حزن الأبد على ثكل العدد لبيان أن هؤلاء القتلى ليسوا غرباء بل من ذوى الرحم الذين يحزننا فقدهم، وفقد القريب يجعل الحزن الواحد حزنيين والفاجعة فاجعتين، ويحضرنا هنا شعر قتيلة[1] في رثاء أخيها النضر الذي صورت فيه قتل الأقرباء بعضهم بعضا بصورة فذة في قولها:

والنضر أقرب من أسرت قرابة ** وأحـقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ** لله أرحام هنالك تمـزق[2]

أما كلمة الأبد فتعنى الدهر،[3] وهذه المفردة من المفردات المألوفة في الشعر العربي انظر إلى قول أبو الطيب المتنبي:

ومن يتهيب صعود الجبال ** يعش أبد الدهر بين الحفر[4]

إذن المعنى الذي أرادته الجليلة هو أن حزننا على هؤلاء القتلى حزن أبدي لن ينتهى.

بعد أن استفاضت الجليلة في وصف حال قبيلتها عامة انتقلت بيسر وسهولة إلى وصف مأساتها الخاصة جراء قتل أخيها جساس لزوجها كليب وهذا مما يحسب لها، فقد حملت هم القبيلة والوطن والحرب المقبلة قبل همها الشخصي وحزنها على قتل زوجها بيد أخيها، ثم وانتقلت لوصف فاجعتها قائلة (فقد حليل، وقتل أخ عما قليل)، والحليل هو الزوج الذي في فقده ترملُ وتيتم، والترمل من الفواجع والأهوال التي تشعل الأحزان وتدمى المآقي وتفقد الحياة طعمها عند الرجال فما بالكم بوقع هذه الفاجعة على الأنثى التي من تمام أنوثتها الضعف، وأما تيتم الأبناء الصغار فوقعه على الأم أشد وأنكي، وقد كان للجليلة بنت من كليب تدعى بديلة لم تعطها الروايات التاريخية حقها اختلف الرواة حول اسمها فقيل بديلة وقيل اليمامة[5]،

1/ / قُتيلة (بضم القاف) بنت الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدارالعبدرية القرشية، ويُقال الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف .أسلمت وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب

6/ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211.

7/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

4 / ديوان أبي الطيب المتنبى، ج3، ص52.

5/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملاين/ ص 5.318

والراجح أن اسمها بديلة ولقبت باليمامة كعادة العرب على تسمية الشيء بضده فاليمامة فال السلام على نقيض ابنة كليب فهي شرارة الحرب، وهي المطالبة بالثار من قاتل والدها، وقد ذكرها عمها في أبيات شعرية رثى بها كليباً فقال:

تسألني بديلة عن أبيهاوما تدري بديلة عن ضميري

على أني تركت بواردات بجيرا في دم مثل العبير

فلو نبش المقابر عن كليب ليعلم بالذنائب أي زير[1]

ثم وضحت الجليلة أن لهذين الفاجعتين الخاصة والعامة ذيول مريرة تتجلى في قولها: تفتت الأكباد وغرس الأحقاد، على رؤوس الأشهاد، انظر إلي ما ختمتت به الجليلة حديثها مصطفيةً الفعل المضارع لما يحمل هذا النوع من الدلالة على الحدث المستمر، فقالت (تفتت أكباد) والتفتت في اللغة قسمين القسم الأول تفتت حسي نجده في قولنا تفتَّت الخبزُ: تقطّع، وتكسَّر تكسُّرًا شديدًا والقسم الثاني تفتت معنوي كقولنا تفتَّت القلبُ حُزْنًا: تألَّم، وتمزَّق،تفتَّتَ كبدي عليه حزنًا: حزنت حزنًا شديدًا[2]، ولا يفوت على فطنتكم دلالة ربط التفتت بالكبد كأنها تقول إن هذا الحزن عميق داخلي يستوطن دواخلنا، واستمرت في بيان آثار تلكم الكارثة الممتدة عبر الأجيال فهي ستقتل أبناء اليوم وتغرس الأحقاد بين أبناء الغد، ولمفردة غرس دلالة لا توجد في ما عداها من مفردات الزرع فالغرس يختص بالتثبيت والتمكين إضافة إلى الزراعة ولفظة الغرس من الجذر غرس وله معنيان الغرس الحسي كقولنا **غرَس** الشّجرَ ونحوَه : أثبته في الأرض وزرعه، والغرس المعنوي كقولنا غرَس فيه فكرةً ونحوَها: رسَّخها، أثبتها، طبَعها في ذهنه[3]، وترى الباحثة أن الجليلة عنت الغرس بشقيه السالفي الذكر، ثم أضافت كل ما سبق إلى قولها (على رؤوس الأشهاد)، والمتعارف عليه أن الأمور المشهودة لا مجال فيها للتراخي أو العفو والصفح خوفا من العار الذي سيلحق بالقبيلة كلها.

(أُمْنِيَّةُ مخدوع وربِّ الكعبة! أبِالبُدْن تَدَعُ لك وائلٌ دم ربِّها ؟!)

الأمنية من الجذر (ميم، نون، ياء) ولهذا الجذر عدد لا يستهان به من المعاني والتصريفات ولكنني سأكتفى بذكر ما يخص مفردة الجليلة فقد أوردها ابن منظور فقال: (....يقال أُمْنِيّةٌ على أُفْعولة والجمع أَمانيُّ، مشدَّدة الياء، وأَمانٍ مخففة، كما يقال أَثافٍ وأَثافيُّ وأَضاحٍ وأَضاحِيُّ

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج4، ص402.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

3/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص412.

لجمع الأُثْفِيّةِ والأُضْحيَّة. قال أَبو العباس: أَحمد بن يحيى التَّمَنِّي حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، قال: والتمني السؤال للرب في الحوائج. وفي الحديث: (إذا تَمَنَّى أَحدُكم فَلْيَسْتَكثِرْ فإِنَّما يسْأَل رَبَّه)، وفي رواية:فلْيُكْثِرْ؛ قال ابن الأَثير: التَّمَنِّي تَشَهِّي حُصُولِ الأَمرالمَرْغوب فيه وحديثُ النَّفْس بما يكون وما لا يكون، والمعنى إِذا سأَل اللهَ حَوائجَه وفَضْله فلْيُكْثِرْ فإِن فضل الله كثير وخزائنه واسعة. وتَمَنَّيت الشيء أَي قَدَّرته وأَحْبَبْتُ أَن يصير إِليَّ مِن المَنى وهو القدر. وتقول تَمَنَّيْت الشيء ومَنَّيت غيري تَمْنِيةً. تَمَنَّى الشيءَ: أَراده، ومَنَّاه إِياه وبه، وهي المِنْيةُ والمُنْية والأُمْنِيَّةُ)[1].

استهلت الجليلة ردها على تساؤل والدها، بالرفض الصريح القاطع فقد وصفت تساؤل أبيها بالأمنية وهذا الوصف دليل على الاستحالة أو الصعوبة على أقل تقدير، والراجح أنها تريد الاستحالة لأنها ألحقت مفردة أمنية بلفظة مخدوع وهي لفظة لا تقل عن سابقتها في الدلالة على استحالة الصلح، ولفظة مخدوع من الجذر خدَعَ يَخدَع، خَدْعًا وخُدْعةً وخَدِيعةً وخِدَاعًا، فهو خادِعُ، وخدَّاعٌ وهي خَدُوعٌ والجمع:خُدُعٌ، والمفعول مَخْدوع وخَدوع وتخدعه الآمالُ: تستميله بمظاهر برّاقة[2]، واللفظتين من السهل الممتنع الذي يجرى على كل لسان ويفهمه البليغ والعيي ولكنه في هذا الموضع يكتسب بهاء ووقع في نفس السائل مؤكدا استحالة قبول ال كليب بالدية مهما عظمت وجلت.

ثم ألحقت ردها القاطع بقولها (وربِّ الكعبة)فقد أقسمتبهذا الحلف الذي يكثر عند الجاهلين ومن مترادفاته وربِّ البيت و وربِّ البنية، ونجد هذا القسم في غالبية الشعر الجاهلي.

ومما أثار انتباهي ترتيبها للجملة فقد استخدمت أسلوب القسملتأكيد قولها، وأسلوب القسم من الأساليب البلاغية التيتمكن الشيء في النفس وتقويه وقد افتتح القرآن الكريم كثيراً من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقساماً في ثنايا عدد غير قليل منها، وفي كل هذا المواضع ورد القسم في بداية الجملة أما عند الجليلة فقد أخرت القسم للهفتها على الرد على والدها بما يعرف ويحذر لتقطع أمله بردها الحاسم وأتت بالقسم في خاتمة الجملة للتوكيد اللفظي.

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص112.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

ثم افتتحت الجملة الثانية بسؤال إنكاري في قولها (أبالبدن تدع لك وئل دم ربها)والبدن من الجذر (الباء، والدال، والنون)ومعناها الناقةُ أو البقرة، وتسمن وتُنحر بمكة قُرْباناً والجمع بدنات وبدن[1]، والتسأل هنا تقريري إنكاري يفيد الاستحالة، مع نبرة حزن ساخرة.

(تدع لك) أي تترك لك، ومرة أخرى تستخدم الجليلة الفعل المضارع الذي يفيد الاستمرارية ومفردة (الدم) بمعنى الثأر والثأر أجرى في لسان العامة والخاصة من مفردة دم وتعريف الثأر في اللغة هو:

الثَّأْرُ وَالثُّؤْرَةُ :الذَّحْلُ. قَالَ اِبْنُ سِيْدَةَ: الثَّأْرُ: الطَّلَبُ بِالدَّمِ، وَقِيْلَ: الدَّمُ نَفْسُهُ، وَالْجَمْعُ: أَثْآرٌ وَآثَارٌ، عَلَىْ الْقَلْبِ. وَقِيْلَ: الثَّأْرُ: قَاتِلُ حَمِيْمِكَ، وَالاِسْمُ :الثُّؤْرَةُ. قَالَ الأَصْمَعِيُّ: أَدْرَكَ فُلاَنٌ ثُؤْرَتَهُ: إِذَا أَدْرَكَ مَنْ يَطْلُبُ ثَأْرَهُ. وَيُقَالُ: ثَأَرْتُ الْقَتِيْلَ وَبِالْقَتِيْلِ ثَأْراً وَثُؤْرَةً، فَأَنَا ثَائِرٌ: أَيْ قَتَلْتُ قَاتِلَهُ. وَالثَّائِرُ: الَّذِيْ لاَ يُبْقِيْ عَلَىْ شَيْئٍ حَتَّىْ يُدْرِك ثَأْرَهُ. وَأَثْأَرَ الرَّجُلُ وَاِثَّأَرَ: أَدْرَكَ ثَأْرَهُ .وَثَأَرَ بِهِ وَثَأَرَهُ: طَلَبَ دَمَهُ. وَيُقَالُ: ثَأَرْتُ فُلاَنَاً وَاِثَّأَرْتُ بِهِ: إِذَا طَلَبْتَ قَاتِلَهُ. وَالثَّائِرُ: الطَّالِبُ .وَثَأَرْتُ الْقَوْمَ ثَأْراً: إِذَا طَلَبْتَ بِثَأْرِهِمْ. قَالَ اِبْنُ السِّكِّيْتِ: ثَأَرْتُ فُلاَنَاً وَثَأَرْتُ بِفُلاَنٍ: إِذَا قَتَلْتَ قَاتِلَهُ. وَثَأْرُكَ: الرَّجُلُ الَّذِيْ أَصَابَ حَمِيْمَكَ .وَالْمَثْؤُوْرُ بِهِ: الْمَقْتُوْلُ. وَتَقُوْلُ: يَا ثَارَاتِ فُلاَنٍ :أَيْ يَا قَتَلَةَ فُلاَنٍ[2].

تعريف الثأر في الاصطلاح

الثأرُ هو أن يقوم أولياء الدم «أقارب القتيل» بقتل القاتل نفسه أو قتل أحد أقاربه انتقاماً لأنفسهم دون أن يتركوا للدولة حق إقامة القصاص الشرعي.[3]

وائل: اسم قبيلة كليب وهي من أشهر القبائل في العصر الجاهلي وتربطها وشائج الدم بقبيلة القاتل جساس فشجرة النسب تفيد أن القبيلتين أبناء عمومة، والمعنى أن قبيلة كليب لن تترك ثأرها عند جساس[4].

ربها من الجذر (الراء، والباء، والباء)والجمع:أرباب ورُبوب، المؤنث:ربَّة، والجمع للمؤنث:ربّات وربِاب،والرَّبُّ:اسم الله تعالى والرَّبّ: المالك والرَّبُّ: السيدورَبُّ الْمَعْمَلِ: مَالِكُهُ، صاحِبُهُ[5]، وبهذه

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص422.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج5، ص1882

3/ نفسه. 3

4/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج3/ دار العلم للملاين/ ص4.201

5/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج4، ص5123

المفردة ختمت الجليلة تسألها الشديد اللهجة كأنها تقول لوالدها أن كليباً رأس قبيلته لذلك لن تفرط في دمه وثأره مهما كانت الدية ولن ترضى بغير الدم والحرب.

إذن فهي تخبر والدها بما يحذر ويتوقع لذلك لم يجادلها ليقينها أن الحرب مقبلة لا محالة ولا مهرب عنها وقد تذهلون لخوف الجليلة وقبيلتها من الحرب وهم الشجعان الفرسان لكنه خوف العالم بعاقبة الحروب فالجاهلي يعيش حياته بين حرب انتهت وأخري مقبلة، وبين هزيمة وانتصار وفي كلا الحالين يدفع ثمن الحرب غاليا.

النص النثري الثاني

ثم بلغ جليلة أن أخت كليب قالت حين ترحلت جليلة عن مأتم كليب:(...رحلة المعتدي وفراق الشامت .. ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة)[1]فردت الجليلة بقولها:(... وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب واترها، أسعد الله جدَّ أختي، أفلا قالت نفرة الحياة وخوف الاعتداء)[2].

بدأت الجليلة نصها بتساؤل رقيق في ظاهره قوي في باطنه جمعت فيه النقيضين بعذوبة وسلاسة في قولها: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها؟؟؟ وهذا التساؤل الإنكاري الهادئ يضج بالحزن ويحمل في طياته التعجب والاستهجان لقول أخت كليب، وهودليل دامغ على الفطنة والحكمة والتمكن من ناصية البيان، وثبات الجنان في موقف عصيب، ثم حملت ذات تساؤلها تفجع على زوجها وأجادت فقد قرنت بين فقدها لزوجها بهتك الستر ولهذه الصورة البيانية دلالتها العميقة الموحية، كما اختارت ألفاظاً غاية في السلاسة، توصل المعنى وتدل على البكائية والتفجع، أنظر ألي لفظة تشمت وهى من الجذر شمت وله معاني كثيرة،الشَّماتة:فَرَحُ العدوّ؛ وقيل: الفَرَحُ بِبلِيَّة العَدُوّ؛ وقيل: الفَرَحُ ببليَّة تنزل بمن تعاديه، والفعل منهما شَمِتَ به، بالكسر، يَشْمَتُ شَماتةً وشَماتاً، وأَشْمَتَه اللهُ به[3]. وفي التنزيل العزيز:(فلا تُشَمِتْ بي الأَعْداءَ)[4]؛ وفي حديث الدعاءِ: أَعوذُ بك من شَماتة الأَعداءِ؛ قال:شَماتةُ الأَعداء فَرَح العَدُوّ ببليَّةٍ تنزل بِمَن يعاديه[5].

وهذه اللفظة كثيرة الدوران على ألسنة الشعراء على اختلاف عصورهم من ذلك قول الشاعر

1/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج2، ص506.

2/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج2، ص506.

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج2، ص203

3/ سورة الأعراف، الآية 150.

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص102.

إذا جر الدهر كلاكله ** أنـــــــاخ بآخـــــرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا ** سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

جذر الحاء والراء والهاء أي الحره وهي مفردة معروفة تعني ضد العبدة، وتفيد في مضمونها الاعتزاز ومما يحضرني هنا استخدام هند بنت عتبة لذات المفردة في بيعة العقبة عندما قال الرسول الكريم أبايعكن على أن لا تزنين ولا تسرقن فقالت هند بنت عتبة بتعجب يشي بالقيم الجاهلية في العصر الجاهلي: (أو تزني الحرة يا رسول الله؟)[2]وأوردها صاحب المثلث فقال:

الْحَرَّةُ الْحِجَـــارَةْ ** وَالْحِرَّةُ الْحَـــرَارَةْ

والْحُرَّةُ الْمُخْتَارَةْ ** مِنْ مُحْصَنَاتِ الْعَرَبِ[3]

لفظة هتك من الجذر (هاء تاء كاف) هتَكَ يهتِك، هَتْكًا، فهو هاتكٌ وهَتَّاك، والمفعول مهتوك هَتَكَ السِّتْرَ: قَطَّعَهُ، خَرَقَهُ، مَزَّقَهُ هَتَكَ الثَّوْبَ: شَقَّهُ طُولاً هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ: فَضَحَهُ[4].(وترقب واترها)وهنا تتسأل أيضا وكيف ترقب واترها فاضافة ها ضمير المتكلم لمفردة الوتر تفيد الحصر كأنها المختصة الوحيدة بهذه الفاجعة.

ثم انتقلت بسلاسة للدعاء بقولها: (أسعد الله جد أختي) وأسعد فعل رباعي متعد وقد نستغرب هذه الدعوة في هذا المكان لكن عند إعمال الفكر قليلاً نجد أن هذه الدعوة ظاهرها طلب السعادة من الله لأخت كليب وباطنها تهديد من الغد ذلك المجهول المخيف كأنها تقول لها إلا تخشى تقلبات الحياة وتصاريف الدهر فربما صرتِ مكاني أو ابتلاكِ الدهر بأشد من بلائي هذا، ومفردة الجد هنا من الجذر (جيم دال دال) والجمع : أَجْدادٌ ، و جُدُودٌ وجُدُودة الجَدُّ:أَبو الأَب، وأَبو الأُم الجَدُّ :الرِّزقالجَدُّالمكانة والمنزلة عند الناس[5]،والجد الحظ ورجل مجدود أي محظوظ، وفي الحديث (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[6]ونجدها في الشعر العربي كثيراً.

(أفلا قالت نفرة الحياء وخوف الاعتداء)،فمفردة نفرة من الجذر(النون الفاء الراء)، نَفْرًا ونُفورًا و نِفارًا، فهو نافر، والمفعول مَنْفور،نفَرتِ المرأةُ عن زوجِها: أعرضت وصدَّت نَفَرَ فلانًا

1/ ديوان الحماسة

2/ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211

2/ مثبث قطرب

4/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص333

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص406.

5/ صحيح البخاري

من الشيء: أَفزعه ودفعه نفَر من صُحبة فلان: كرهها، وأنفها، وانقبض منها غيرَ راضٍ عنها نَفَرَ من المكان نَفَرًا: تركه إلى غيره[1]، والجليلة هنا تصف حالها عند خروجها من مأتم زوجها فقد خرجت كارهة منقبضة النفس حياء من مقامها في مأتم زوجها الذي قتله أخوها جساس وأيضاً خوفاً من أهل زوجها أن يأخذوها بجريرة جساس ويعتدون عليها مفرغين أحزانهم في شخصها الضعيف وهي بينهم وحيدة بلا ناصر ولا معين.

المبحث الثاني النص الشعري للجليلة بنت مرة

إنَّ الجليلة ليست أول من رثي زوجه من الجاهليات فقد حدث الأصمعي[2] أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهي تبكي وتقول:

خدي تقيك خشونة اللحد ** وقليلة لك سيدي خدي

يا ساكن القبر الذي بوفاته ** عميت علي مسالك الرشد

اسمع أبثك علتي فلعلني ** أطفي بذلك حرقة الوجـــد[3]

لا أدري أرثت الجليلة قبيلتها أم رثت زوجها كليباً بهذه القصيدة الرائعة التي وصفها ابن رشيقبقوله: (فانظر... ما أشجى لفظها، وأظهر الفجيعة فيه!! وكيف يثير الأشجان، ويقدح شرر النيران)[4]،

ياابْنةَ الأقـوامِ إن لُمْتِ فَلا ** تَعْجَلي باللَّوْمِ حتَّى تَسْأَلِي

فَـإِذَا أَنتِ تَبَيَّنْتِ الَّـتي ** عندها اللَّـومُ فَلُومِي واعذِلِي[5]

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص112.

2/ ولد أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمنبن أبي ليلى يسار بن بلال بن بُليل بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبا بن كُلفة بن عوف بن عمرو الأوسيالأنصاريسنة 76 هـ في الكوفة ونشأ بهاتوفي أبوه وهو صغير في وقعة دير الجماجمسنة 82 هـ، فاعتنى به أخوه عيسىطلب ابن أبي ليلى العلم من تابعي الكوفة حتى بلغ منزلة عالية في الفقه، فاختير للقضاء في عهد الدولة الأموية، وكان أول من استقضاه على الكوفة يوسف بن عمر الثقفي،وظل من بعدها قاضيًا للكوفة مدة 33 سنة،حتى عهد الدولة العباسيةحيث كان قاضيًا على الكوفة وقت ولاية عيسى بن موسىعلى الكوفة وأعمالهاوقد توفي ابن أبي ليلى بالكوفةفي رمضان سنة 148 هـ،له من الكتب كتاب الفرائض.

3/ سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ج5، ص272.

4/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.

4/ المرجع السابق.

ابتدرت جليلة قصيدتها بالرد المباشر على أخت كليب في لطف وضعف فقد نادتها بنداء القريب وليس المقصود هنا القرب المكاني ولا الزماني فقط بل قرابة النسب والدم فهما ابناء عمومة أولا وأصهار ثانيا وفي ذلك نوعا من الاستعطاف والتذكير بما بينهما من الصلات الطيبة التى لا ينبغي بأى حال من الأحوال تناسيها، ثم عاتبتها عتاب رقيق لا يحمل حقداً ولا غضب بل طلبت منها التأني قبل لوم ابنة عمها وزوج أخيها على ما كان، وأتي البيت الثاني مكملاً للأول فقد افتتحته الجليلة بإذا الشرطية كأنها تؤكد أن لا شيء صدر منها يوجب اللوم والعتاب.

وأجمل مفردات هذه القصيدة مفردة لُمْتِ: من اللوم وهو العَذْل أي الملامة[1] وهذه المفردة من مفاتيح القصائد الوجدانية التي كانت وما زالت تتسلل إلى قلوب السامعين وتعلق بأذهانهم ورغم استخدامها في العصر الجاهلي المشهور بألفاظه الوعرة أنها استخدمت في كافة العصور لرقتها ومناسبتها للقصائد العاطفية نحو قصيدة الشاعر الفذ ابن زريق والتي يقول في مطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ** قدقلت حق لكن ليس يسمعه[2]

إن تَكُنْ أختُ امرِئٍ لِيمَتْ علَى ** جَزَعٍ مِنها عَلَيهِ فافْعَلي[3]

في هذا البيت وقفة جليلة وقفة المواسي لا الشامت، مذكرةً أخت كليب بكثرة من مات من الرجال وبكتهم أخواتهم دون أن يمتن من حزن أو بكاء، ثم مدحت كليباً بأنه أهل لأن تموت أخته بكاءً عليه، وهنا يحضرني قول تماضر الخنساء في رثاء أخيها صخر بيتاً مشابها لبيت جليلة من حيث المعنى في صياغة ألطف وعبارة أوضح وفيه تقول:

فلولا كثـرة الباكين حولي ** على إخوانهم لقتلت نفْسي

وما يبكين مثـل أخي ولكن ** أسلي النفس عنه بالتـأسي[4]

وهذ الموقف الكريم مما يحسب لجليلة فهي تواسي أخت زوجها في قمة مأساتها وذروة فاجعتها ولا يقف هذ الموقف الرائع ذو جنان ثابت.

فِعلُ جَسَّـاسٍ علَى ضِنّي بِهِ ** قاطِعٌ ظَهْري ومُـدْنٍ أَجَلي

لَو بعَينٍ فُدِيَتْ عَيْـني سِوَى ** أختها و انفـقأَتْ لَمْ أحْفِلِ[5]

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج7، ص402.

2/ ديوان ابن زريق البغدادي، دار بيروت، ص102.

3/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص3.13

4/ ديوان الخنساء، دار الفكر بيروت، ص113.

5/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص5.13

في هذين البيتين تناولت جليلة المشكلة ووصفتها وصفاً دقيقاً، انظر إلى قولها فعل جساس تأكيد على أن القاتل جساس ولا ذنب لها في ذلك، وفي رواية ثانية استبدل الراوي كلمة (ضني به) بكلمة (وجدي به) وعند المفاضلة بين اللفظين نجد أن معنى ضنى به أشمل فهو يحوي المعنى الأول ويضيف إليه بعد غير موجود في لفظة وجدي فالوجد الحب ولا توجد أخت لا تحب أخاها حباً فطرياً جبل عليه الإنسان، أمل لفظة ضني به فتعني شدة التمسك ولا يتمسك الإنسان إلا بالنفيس والعزيز،وهذا البيت يشتمل على استعارة مكنية في مفردة (قاطع) فقد شبهت فعل جساس بالسيف بجامع القوة والإيلام في كلّ ثم حذفت المشبه به وأتت بشيءٍ من لوازمه وهي لفظة (قاطع) على سبيل الاستعارة المكنية، وبدأت البيت الخامس بوصف دقيق لحالها وكيف أنها بين شقي الرحى ضاربة المثل بعينها لبيان موقع كلٍّ من زوجها وأخيها في نفسها وصاغت هذا الحساس النبيل في عبارة واضحة بقولها(فلو فُقِئتْ عينٌ – على سبيل الثأر- بعينٍ أخرى غير أختها فانفقأت لم أبالى) لكنها فُقِأَتْ بأختها تريد لو أن شخصا آخر غير أخيها هو الذي قتل زوجها لم تبالِ أي لم تبال بأخذ الثأر من قاتل زوجها ولكن الأمر أن أخاها هو قاتل زوجها وهو المطلوب للثأر فهي لذلك تتحسر على زوجها وأخيها، وهذا البيت هو لب القضية التي تقوم عليها قصيدة الجليلة بنت مرة وحرب البسوس التي استمرت زهاء الأربعين عاماً.

تحمِلُ العينُ قذَى العينِ كما ** تَحمِلُ الأُمُّ قذَى ما تَفْتَلي

إنَّني قاتلةٌ مَّقـــــــــــتولةٌ ** فَلعلَّ اللهَ أن يرتـــاحَ لِي[1]

إن العين إذا وقع فيها قذى فإن العين الأخرى تشاركها في وقوع الضرر عليها كذالك تتحمل الأمُّ أذى ما تنجب من أولاد وللعرب في هذا الباب أمثلة كثيرة ولنا في العامية السودانية مثلا شهير وهو(البلدي دبيب بلولي)[2]، وأنا هنا أحمل وزر أخي مدفوعة بالعاطفة أولا وبالأخوة ثانية، وبالقبيلة ثالثا، فانا ممزقة بين أخي وزوجي، فمصيبتي لا مثيل لها لأنني القاتلة المقتولة، ولا منجاة لي ولا فرار سوى التوسل إلى الله عز وجل أن يخفف مصابي ويرزقني الصبر والفرج ويمن علي بفضله الواسع.

يا قتيـلاً قوَّضَ الـدَّهرُ به ** سَقْفَ بَيتَيَّ جميعًا مِنْ عَلِ

ورَماني فَقْـدُهُ مِن كَثَبٍ ** رَمْيـةَ المُصْـمَى بِهِ المُستأصَلِ

1/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.

2/ الأحاجي السودانية ل، ص162.

يا قتيلاً نصب المنادى هنا وإن كان نكرة مقصودة فحقه البناءُ على الضم لأن الشاعر يجوز له عند الاضطرار تنوين المنادى بالضم أو النصب إذا كان نكرة مقصودة، وقد ورد السماع بكليهما وهذا البيت شاهد للنصب، قَوَّضَ: هدم[1]، وكل مهدوم مقوض، وليس كل مقوض مهدوم، بيتيّ بتشديد الياء مثنى بيت أصله بيتين لى فحذفت النون للإضافة واللام تخفيفا لكثرة الاستعمال ثم أدغمت الياء في الياء فصار بيتيّ، من عَلِ:من العُلُوّ أي من فوق[2]، والجليلة هنا تنادى زوجها المقتول وتقول له: لقد هدم الدهر بقتلك بيتيَّ جميعا.

أما في هذا البيت فتصف الجليلة وقع قتل كليب عليها كمن رمي بسهم صائب وهذا الرامي شديد القرب منها في قولها: (من كَثَبٍ) أيمن قريب. ولفظة المُصْمي من الفعل أَصْمَي على وزن أَفْعَل وهو مزيد ثلاثي بالألف، وفعله المجرد (صَمَي) على وزن (فَعَل) يقال: صَمَي الصيدُ يَصْمِي صَمْيًا من باب رمى: إذا مات وأنت تراه، ثم يتعدى الفعل بالألف فيقال: (أَصْمَيْتُهُ) إذا قتلتَه بين يديك وأنت تراه[3]، وفي الحديث:(كُلْ مَا أَصْمَيْتَ وَدَعْ مَا أَنْمَيْتَ)[4] معنى (أَصْمَيْتَ) أن يأخذ الكلبُ صيدًا بعينك ويسيل دمُه فتلحقُه وقد قَتَلَهُ فهذا الصيدُ يؤكل والمعنى: كُلْ ما قتله كلبُك وأنت تراه وقد اقتصر الأزهري في التفسير على الكلب على سبيل التمثيل والسهم ملحق به، وظاهر الحديث عام فيهما. ومعنى أنميت غاب عن عينك فمات ولم تره فلا تدري هل مات بسهمك وكلبك أم بشيء عرض[5]. ويقال: (أَصْمَى الرَّمِيَّةَ) أنفذ فيها السهم ونحوه[6].المستأصل استأصَلَ الشئَ: قلعه من أصله أو بأصوله، واستأصل القوم: قطع أصلهم[7]، جَعَلَتْ قتلَ زوجِها كليبٍ كالصائد وجعلت نفسها كالصيد الذي يُرْمى، فهذا الصائد قد رماها بسهم نفذ فيها وقلعها من أصولها، أرادت أن قتلَ زوجها رماها رميةً شديدة جدا لأنها جعلته يرمى من قريب، ثم وصفت الرميةَ بأنها رمية الذي يُصمَي بالسهم أي يصاب به فينفذ فيه فيقتله [أو يُصْمِي بالسهم أى يصيب به الصيد فيقتله] فإن جعلت قولها: (المُصْمَي المُستأصَل) اسمَيْ مفعول فهي

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص112.

2/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج7، ص402.

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص373

4/لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر بيروت، سنة 2003م، الطبعة الثانية، ص117

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج2، ص100.

6/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص109.

7/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص103

تريد وصف الصيد الذي رُمِيَ (أى نفسها) بأنه أصيب فنفذ فيه السهم فقُتِل فاقتطعه السهم من أصوله. وإن جعلت قولها: (المُصْمِي المُستأصِل) اسمَي فاعل فالمراد وصف الصائد الذي رَمَى بأنه أصاب الصيد وأنفذ فيه سهمه فقتله واقتطعه من أصوله. وقولها (المستأصل)تتميم، وذلك أن المعنى قد تَمَّ عند قولها (المصميبه) فإن المعنى أن قتل زوجها الذي هو الصائد قد رماها من قريب رمية شديدة فأصابتها ونفذ فيها سهمه. وهذا معنى تام فلما قالت (المستأصل) زادت معنى جديدا لم يكن ليظهر بدون هذه الزيادة فهى تقول إن السهم قد أصابها ونفذ فيها وفعل بها ما يفعل السهم فى الرَّمِيّةِ ، وليس هذا فحسب بل إنه مع هذا قد اقتلعها من أصولها. فهذا تتميم أفاد المبالغة فلو طُرِح نقص المعنى واختل حسن التركيب فإنالمرأة إذا أساء زوجها عِشْرَتَها كان لها في أهلها مندوحة عن إساءاته، وإن عَقَّها أهلُها كان لها في بيت زوجها متنفس عن عقوقهم وأما هذه فقد اقْتُلِعَتْ من أصولها فلا هناء لها في بيت أهلها ولا بيت زوجها فلم يعُد لها أصل تركن إليه.

فائدة بلاغية:

البيت الثاني من أعقد أبيات قصيدة الجليلة وقد استشهد به البلاغيون في قضية وضع المضمر موضع المظهر ونجد هذه القضية في قول الجليلة: (المستأصل)والضمير في بهمن قولها: (المصمي به) يعود على السهم وإن لم يجر له ذكر فى الكلام وثوقا بمعرفة السامع به وهذا في الكلام البليغ كثير منه قوله تعالى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}[1]أي الشمس ولم يجر لها ذكر، وقوله أيضاً: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}[2]أي القرآن ولم يجر له ذكر في الكلام وغير ذلك كثير وهذا النوع يسميه علماء المعاني وضع المضمر موضع المظهر، وانفرد ابن جنى بتسميته شجاعة الفصاحة؛ لأن الفصيح لا يكاد يستعمله في كلامه إلا وفصاحته جريئة الجنان غزيرة المواد[3]، وإن كان هذا البيت من أعقد أبيات الجليلة من حيث تركيبته اللغوية فهو أيضا مربط الفرس وعين المشكلة التى تواجهها الجليلة أما عند الروائيين فيسمى قمة الحبكة وعقدة النص.

هَدَمَ البَيتَ الَّذي اسْتَحْدَثْتُهُ ** وَسَعَى في هَدْمِ بَيْتي الأوَّلِ

والجليلة في هذا البيت تخاطب زوجها القتيل وتبثه أشجانها في عبارات رقيقة حزينة واصفة حالها بعده بقولها هدم الدهر بقتلك بيتي الذي استحدثته بزواجي لأنك كنت ركن البيت

1/ سورة ص، الآية 32.

2/ سورة القدر، الآية 1.

3/ الخصائص لابن جني، ص42.

وعموده فلما قُتِلْتَ هُدِم ركن البيت فهُدِم البيت ، وسعى – أي الدهر – في هدم بيتي الأول وهو بيت أبيها وهنا أشارة واضحة لما تتوقعه الجليلة من سعى قبيلة زوجها للانتقام من أخيها وقبيلته وقد تحقق ما خافته الجليلة وظلت الحرب مستعرة بين وائل وتغلب زهاء أربعين عاماً.

مسَّني فَقْدُ كُلَيْـبٍ بِلَظًى ** مِن ورَائي ولَظًى مُّستَقْبِلِي

وتابعت الجليلة شكوها بذات اللغة الرفيعة العذبة مصورة حالها بمن تحيط به النيران من أمامه وخلفه ولا مفر منها، فقد خصني قتل كليب بنار تتوقد من ورائي حيث إن المقتولَ زوجي، وبنار توقد من أمامي حيث إن المطلوب بالثأر أخي وكلاهما أقرب أقربائي.

لَيسَ مَن يَبْكِي لِيَـومَينِ كمَنْ ** إنَّما يَبْكِي ليـومٍ ينجَلِي

ليس من يبكى على يومين يوم مضى وقعت فيه مصيبة ويوم مقبل ينتظر وقوع مصيبة أخرى مثلها كمن يبكى ليوم ينجلي فالجليلة هنا تبين أن كارثة قتل كليب لن تبكي ليومين وتنسي بل هي شرارة الأحزان وبداية القتلى من القبيلتين أبناء العمومة وأصهار الأمس أعداء اليوم، وتلكم لعمرى مأساة تاريخية وعداواة لن تنتهي بل سيرثها الأجيال، وهذه هي الكارثة الحقيقية.

دَرَكُ الثَّائرِ شـافيهِ وفي دَرَكي ثأرِيَ ثَكْلُ المثكلِ**

يشتفى يقال: اشتفي بكذا: نال الشفاء وتشفى من غيظه. الثكل فقدان الحبيب أي من كان له ثأر فأخذه اشتفي به ولكن في ثأري فقدان الأحبة لأن ثأري عند أخي.

لَيتـهُ كان دَمي فاحتلبوا ** دِررًا مِّنهُ دمي مِنْ أَكْحَـلي

دررًادَرَّ اللبنُ والدمع ونحوهما يَدِرُّ ويَدُرُّ دَرّاً ودُرُوراً وكذلك الناقة إذا حُلِبَتْ فأَقبل منها على الحالب شيء كثير.أكحلى الأكحل عِرْقٌ في وسط الذراع يفصد أو يحقن يقال له النَّسا في الفخذ وفي الظهر الأبهر. وقيل: الأكحل عرق الحياة يدعى نهر البدن وفي كل عضو منه شعبة له اسم على حدة فإذا قطع في اليد لم يرقأ الدمليت هذا الثأر كان دمًا فأخذوه منى بأن يحتلبوا من أكحلى دما كثيرا حتى يدركوا ثأرهم.

المبحث الثالث الموسيقى والأوزان

إنّ لكل نص أدبي موسيقى، سواء كان نصا نثريا أو شعريا، ولكن مما يميز النص الشعري اشتماله عل نوعين من الموسيقى الأولى موسيقى خارجية والثانية موسيقى داخلية، ورغم أن النص النثري ليست له موسيقى خارجية إلا أن موسيقاه الداخلية تتوقف على براعة الأديب وتكسب النص رونقاً وبهاءً لا نجدهما في الحديث العادي.

إنّ الموسيقى الخارجية للقصيدة تسير عل قدمين (القافية والبحر)، والقافية هي آخر البيت ولها ستة أحرف أهمها حرف الروى لأن القصيدة تبنى عليه فنقول ميمية ورائية وهكذا، وتعتبر القوافي من الأمور الشاقة التى تشمس حينا وتواتيك حينا آخر، لذلك لا بد للشاعر من اختيار القافية الملائمة لمعانيه وأغراضه، وهذا عناه صاحب الصناعتين في قوله: (وإذا أردت أن تصنع شعرا فأحضر المعاني التى تريد نظمها في فكرك وأخطرها على قلبك، واطلب لها ...، وقافية تحتملها فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن منه في أخرى)[1]، وهذا ما جعل الشاعرة تتخير قافيتها من القوافي اليسيرة التى يسهل القول فيها لكثرة المفردات المختومة بحرف الروي اللام ولم تكتفِ بذلك بل جعلت اللام مكسورة لمناسبة الكسر للياء.

إذا نظرنا إلى القصيدة مناط البحث لوجدنا أنها جاءت على بحر الرمل[2] وهذا البحر ذو موسيقى خفيفة رشيقة منسابة، وفيه شيء من العاطفة الحزينة دون كآبة أو تفجع[3] وهذه النغمة الغامضة هي ما تجعله أنسب البحور للرثاء ففيه الترنم والرقة والحزن كما أن فيه رقة وعذوبة على ما فيه من الأسى، إذن فقد أجادت الشاعرة اختيار البحر الذي يعبر عن حزنها وفجيعتها في زوجها وأخيها على حد سواء، وهذا ما عناه العلامة عبد الله الطيب عندما أقر أن الأغراض الشعرية تلعب دوراً بارزاً في اختيار البحر في قوله: (... مرادي أن أحاول بقدر المستطاع تبين أنواع الشعر التى تناسب البحور المختلفة)[4]، لا نريد هنا إنَّ نقول أن الشاعرة تركت حزنها وتخيرت البحر لكننا نرمي إلا أن الفطرة السليمة والسليقة السوية تقودها إلى هذا البحر دون سواه.

الخاتمة

إنّ العصر الجاهلي من العصور التي حظيت بدراسات ومقالات وافرة، وقلما نجد كاتباً من الكتاب لم يخص العصر الجاهلي بكتاب أو اثنين من المؤلفات القيمة التي تعين الباحث وتكاد تصور البيئة الجاهلية بكافة تفاصيلها ولكن مازال فيها الغريب والمجهول وخاصة شعر النساء

1/انظر أسس النقد الأدبي عند العرب، ص1.55

2/ أحد البحور الخمسة عشر التى وضعها الخليل، يناسب هذا البحر الغناء والنواح على حدا سواء2

3/ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطيب، ج1، ص3.158

4/ المرجع السابق، ج1، ص4.93

لذلك هدفت إلى إبراز شاعرية الجليلة من خلال نصوصها الأدبية الثلاثة رغم أن أديبة بهذه القوة والسلاسة والدقة والحس الفني العالي لا أظن أنها لم تقل سوى هذه المقطوعة اليتيمة وأعتقد أن أشعارها أكثر مما وصلنا لكنها عاشت فترة عصيبة طمست الحرب معالمها وأذهلت الرواة عن تتبع نصوصها كما لم أقف على سفر ترجم لها ترجمة وافية فأغلب ما وجدته تحدث عن واقعتين لا غير الأولى زواجها من كليب وغضب التبع اليماني والثانية مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس، والخبران غالباً ما يكونا مقتضبين كأنهما مدخل للولوج للموضوع الرئيس ألا وهو حرب البسوس وأيامها وامتدادها لأربعين عاما وتخليد بطولات فرسانها، دون أي ذكر للجليلة .

النتائج

1/ إنَّ شاعرية المرأة تألقت في هذا الرثاء تألقًا عظيمًا، وقد أسهمت المرأة فيه إسهامًا لم يحققه إلا قلة من الرجال كيفًا، وهو إسهام لم تقدم مثله في سائر الفنون الشعرية كمًا.

2/ إنَّ فن الرثاء هو من أبرز الفنون الشعرية وأكثرها صدقًا وغناء بالتجربة الإنسانية.

3/ إنَّ الجاهليين لم يبكوا عادة سوى قتلى الحروب والثارات فيما بينهم. أما الموت الطبيعي فلم يكن ليثير داعية الرثاء لديهم. وقد تغير هذا مع تطور الحياة، وصار الرثاء يتناول كل ميت استوجب الندب والتحسر عليه، سواء مات شهيدًا أو مغتالاً أو حتف أنفه.

4/ من الصعوبة تحديد إطار عام لقصيدة الرثاء. فعلى الرغم من أن الشاعر - أو الشاعرة - يركز جهده في تعداد مآثر القتيل أو الأسرة المنكوبة، أو البلد السليب، وهو المحور الأساسي في كلِّ رثاء، فإن قصيدته تظل ذات طابع خاص من حيث بنائها الفني وعناصرها وتنوع الأساليب فيها، ومن حيث الزاوية التي يدخل منها الشاعر على موضوعه، والرؤية الفنية والوجدانية حيال هذا الموضوع.

5/ لم يصلنا من الجاهليين أي رثاء للزوجات والجواري. ولعل لذلك أسبابًا قبلية واجتماعية، جعلت الرجال يأنفون من ذلك، لكيلا يُحسب عليهم ويحط من قدرهم بزعمهم.

6/ شاركت قصيدة الرثاء مختلف الفنون الشعرية الأخرى في تطورها الفني أسلوبًا وصورًا ومعاني وعناية بالترصيع البديعي، واتصافًا بوحدة البيت أو الوحدة الموضوعية، أي أنها تطورت خلال المراحل نفسها التي مرت بها فنون الوصف والمدح والهجاء والحماسة والفخر والغزل.

المصادروالمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأحاجي السودانية ل، ص162.
3. الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملاين/ ص 318.
4. الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج7، ص521.
5. أنظر أسس النقد الأدبي عند العرب، ص55.
6. انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطيب، ج1، ص158.
7. الخصائص لابن جني، ص42.
8. ديوان ابن زريق البغدادي، دار بيروت، ص102.
9. ديوان أبي الطيب المتنبى، ج3، ص52.
10. سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ج5، ص272.
11. السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211.
12. العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص204
13. العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.
14. لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص112.
15. مثلث قطرب
16. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية القاهرة،دار الدعوة